

المجلد 09 / العدد 02 / ديسمبر (2025)، ص.ص. 516-527

هايتوس المهاجر السري في رواية هجرة حارس الحظيرة لنجم الدين سيدي عثمان -دراسة سوسيو ثقافية وفق منظور
بيير بورديو

The Habitus of the Undocumented Migrant in the Novel The Migration of the Barn Guard by Najm Eddine Sidi Othman: A Socio-Cultural Study from the Perspective of Pierre Bourdieu

أ.د وردة معلم
maallem.ouarda@univ-guelma.dz
جامعة 8ماي 1945- قالمة

نادية بوخميس*
nadia.boukhmis@univ-annaba.dz
جامعة باجي مختار عنابة
مخبر الأدب العام والمقارن
(الجزائر)

تاريخ النشر: 2025/12/02

تاريخ القبول: 2025/09/15

تاريخ الاستلام: 2025/07/05

ملخص:

أصبحت ظاهرة الهجرة السرية، في السنوات الأخيرة، موضوعا حاضرا بقوة في المتخيل الأدبي الجزائري، حيث وجد الزرائي في تلك التجربة مادة غنية لاستكشاف تحولات الذات والهوية، وتمثل الآخر، وهذا دفعنا إلى دراسة هايتوس المهاجر السري في رواية هجرة حارس الحظيرة، اعتمادا على أدوات التحليل السوسولوجي لبيير بورديو، لفهم كيفية تشكل الممارسات، والتصورات لدى المهاجر السري حين يكون في وضعية الهامش. وقد توصلت الدراسة إلى جملة من النتائج أهمها: أن هايتوس المهاجر السري كما تعكسه الرواية ليس مجرد انعكاس لتجربة فردية في الهامش، بل هو بناء اجتماعي مركب تشكل تحت وطأة الانسلاخ الطبقي، والقلق الثقافي. كلمات مفتاحية: هايتوس، المهاجر السري، الرواية الجزائرية، بيير بورديو، الهجرة السرية.

Abstract:

In recent years, the phenomenon of clandestine migration has become a prominent theme in the Algerian literary imagination. The novelist has found in this experience a rich material for exploring transformations of the self and identity, as well as representations of the Other. This prompted us to study the habitus of the clandestine migrant in the novel *The Migration of the Barn Guard*, using Pierre Bourdieu's sociological tools of analysis, in order to understand how practices, tastes, and perceptions are formed when the migrant is positioned at the margins.

The study led to a number of findings, the most important of which is that the habitus of the clandestine migrant, as reflected in the novel, is not merely the expression of an individual experience of marginality. Rather, it is a complex social construct shaped under the pressure of class dislocation, cultural anxiety.

Keywords : Habitus, clandestine migrant, Algerian novel, Pierre Bourdieu, Clandestine migration.

1. مقدمة:

*المؤلف المرسل.

يُعرف بيير بورديو Pierre Bourdieu (1930-2002) بأنه من علماء الاجتماع اللامعين في سماء فرنسا والعالم، وقد اكتسب تلك المكانة نظير مجهوداته الكبيرة في سبيل الارتقاء بعلم الاجتماع. فقد كانت أطروحته الفكرية جديدة ومغايرة للنظريات الكلاسيكية التي اهتمت بدراسة الظواهر الاجتماعية، لذا أثر كثيرا في الحياة الثقافية الفرنسية تحديدا.

وقد طور بعض مفاهيم كارل ماركس Karl Marx كراس المال، وأكسبه بعدا آخر، كما أعاد صياغة بعض رؤى ماكس فيبر Max Weber بطريقة مغايرة ومبدعة، وأكسبها آفاقا اجتماعية أكثر رحابة. كما أولى اهتماما بالغا بالظواهر الاجتماعية، والثقافية، والأدبية، وحتى السياسية والاقتصادية. إضافة إلى أنه صاغ مفاهيم جديدة لمشروعه النظري أسهمت في إثراء نظريته التي يطلق عليها نظرية الممارسة.

ومن بين المفاهيم التي ارتكزت عليها نظريته، نذكر: الحقل champ، والفضاء الاجتماعي Espace Social، والرأس المال Capital، والعنف الرمزي Violence Symbolique، والسلطة الرمزية Pouvoir Symbolique، والهايتوس Habitus... وجدّد بورديو بعض هذه المفاهيم وفق منظوره السوسولوجي المعاصر. وكان له إنتاج كبير؛ إذ ألف أكثر من سبعة وثلاثين كتابا، ومئات المقالات، ومحاولا فيها توضيح نظريته.¹ وتأثي هذه الدراسة - انطلاقا مما سبق ذكره- لرصد تظاهرات الهايتوس في المتن الروائي لنجم الدين سيدي عثمان، والكشف عن مدى إسهام هذا المفهوم في تفسير الظواهر الاجتماعية التي تتضمنها رواية هجرة حارس الحظيرة. وتكسب الدراسة أهميتها من أهمية ظاهرة الهجرة السرية من جهة، وأهمية الهايتوس الذي جعله بورديو ركيزة لفهم وتفسير الظواهر الاجتماعية من جهة أخرى. فما طبيعة هذا المفهوم؟ وما هي الوظائف التي يضطلع بها، والأدوار التي يؤديها، والقيمة التي يمثلها ضمن البناء النظري لسوسولوجيا بورديو؟ وكيف أسهم في تحليل الظواهر الاجتماعية المتناولة في المتن الروائي لنجم الدين سيدي عثمان؟ للإجابة عن كلّ هذه الأسئلة، ينبغي التعرف بداية على نظرية الممارسة عند بيير بورديو، وكيف عمل على بلورتها.

2. نظرية الممارسة عند بيير بورديو:

تركز اهتمام بيير بورديو بصورة أساسية على دراسة الآليات التي تنتج التراتبية داخل المجتمع، وكان من بين علماء الاجتماع الذين شددوا على الأهمية البالغة للعوامل الثقافية والرمزية في بناء هذه التراتبية، وهذا التصور جعل سوسولوجيا بورديو تتوضع في مسار مختلف عن السوسولوجيا الماركسية، التي ينطلق منظورها من عدّ العامل الاقتصادي المحدّد الجوهري في تفسير وتحليل الظواهر الاجتماعية.

وركز بورديو في مجازاته التحليلي ضمن نظرية الممارسة على مفاهيم متعدّدة لمقاربة الظواهر الاجتماعية، ومن أبرزها: الهايتوس، والحقل، والرأس مال. ويتميز الهايتوس بالغموض؛ إذ أنه من أكثر المفاهيم التي بلورها بورديو تعقيدا واثارة للجدل، وعلى الرغم من ذلك حظي عنده بأهمية بالغة، فهو مفهوم مركزيّ اتخذ وسيلة لتفسير الوضعيات الاجتماعية الممارسة من قبل الفاعلين الاجتماعيين في فضاءهم الاجتماعي². وقدم تعريفات له في العديد من كتبه، وكان هدفه من صياغة هذا المفهوم هو تجاوز التعارض القائم بين الموضوعية والذاتية، ومحاولة الدمج بينهما؛ ذلك أنّ التزعة الموضوعية تفترض أنّ البناء الاجتماعي هو الذي يفرض نفسه على الفاعلين، وبالتالي تهمل وعي الفاعلين وإرادتهم، وتعدهم خاضعين لما تحدده لهم البنية الاجتماعية، وعلى خلاف ذلك تركز التزعة الذاتية على الدور الذي يمارسه الأفراد في المجتمع، أي تولي اهتمامها بالفعل³. فكيف تجلّي الهايتوس في رواية هجرة حارس الحظيرة؟

3. تجلّيات هايتوس المهاجر السري في رواية هجرة حارس الحظيرة لنجم الدين سيدي عثمان:

1.3 هايتوس المهاجر السري قبل العبور:

تولي رواية الهجرة السرية اهتماما كبيرا بالبيئة الاجتماعية التي نشأ فيها البطل، وغيره من الشخصيات التي قزرت اجتياز مغامرة الهجرة سراً، فالظروف المحيطة بهم، والتي تتميز بالقسوة في أغلب الأحيان، هي التي تضطّرهم إلى الهروب، إضافة إلى القمع السياسي، وكبت الحريات، واسوداد الأفق... وتشكّل كلّ تلك الظروف هايتوس الشخصيات الذي أثر في سلوكياتهم وقراراتهم. ويقصد بالهايتوس Habitus الطريقة التي تشكل بها الظروف الاجتماعية

سلوكات الأفراد، فهو يرتبط بالتنشئة الاجتماعية، وبالبيئة التي تعدّ الركيزة الأولى لبناء الشخصية الفردية والتي تحدّد السلوكات وكذا القيم والمعتقدات والتصورات التي تتبناها تلك الشخصية. أو بتعبير آخر هو تلك الاستعدادات والسلوكات التي يكتسبها الفرد بناء على تفاعله مع مجتمعه.⁴

لم يكن العياشي، بطل راوي رواية هجرة حارس الخطيرة، يعيش أوضاعا مثالية، بل كان محاصرا من جميع الجهات، فهو يعاني البطالة والتميش على الرغم من حصوله على مؤهل علمي، ولم تشفع له شهادة اللسانس في التاريخ التي يحملها في الحصول على عمل، فمنذ عامين على تخرجه، وهو يحاول أن يجد حلا لوضعيته المزرية، لكن محاولاته تلك باءت بالفشل. كما أنّ صديقه سمير لم يكن أفضل منه حالا، إذ لم يجِدْ عليه مستواه الجامعي بأكثر من عقد عمل مؤقت في إطار عقود ما قبل التشغيل.

أما كمال فهو أسوأ حالا منها، لأنه لم يتعدّ المرحلة الابتدائية. وقد اضطرتهم بطالتهم إلى العمل في حظيرة سيارات غير شرعية، بحي الكدية وسط مدينة قسنطينة. يقول العياشي حاقا على ما آل إليه: "بتطير العمر مثل شطايا الألعاب النارية، ومع كل عام ينضم إلى ركام سنواتي الضائعة أستحيل إلى جثة باركة تتحرك بيأس وراء السيارات".⁵

ويركز الروائي على الآلام التي يعيشها الشباب الجزائري البسيط، ويعزّي الواقع البائس الذي يطبع في كلّ واحد منهم الرغبة في الرحيل، فلا شيء يدعوهم إلى التفاوض، وما من بارقة أمل لانفراج قريب، لذلك تشرّبت الأعناق نحو بلاد الغرب، فتمّ ينعم الإنسان بالحرية والكرامة التي يفتقدها في وطنه، أو هكذا يتخيّل لمن يبس من تغير أوضاع بلاده إلى الأفضل، وما الانتاج بقم الآخر إلا رغبة في خلق توازن موهوم لذات مأزومة، لذلك يظلّ الحالم بالهجرة مشدودا لسراب فردوسي عسير التحقق.⁶

ولعلّ ما تزعج عليه شباب حي الكدية خير دليل على ذلك؛ فهم يقضون أوقات كثيرة أمام محرّك البحث، وكأنهم يستجِدون منه حلا سحريا يبدّل واقعهم بواقع أجمل، ويخفّف عنهم حمل الأيام الثقيل الذي يجمّ على صدورهم، تتحور أسئلتهم حول الكيفية المناسبة للهجرة أو اللجوء. يقول العياشي في هذا الشأن: "تتعدّد الكلمات المستعملة في البحث عن وجهة ممكنة ولكن الغاية واحدة، لا أحد يريد أن يبقى كأن الطاعون قادم ليفتك بالجميع بلا رحمة".⁷

ويبرز النصّ الروائي كيفية تأثير العوامل الاجتماعية وحتى الثقافية على سلوكات الشخصيات، وكذا نمط تفكيرهم، فالحلّ الاجتماعي الذي نشأ فيه البطل ورفاقه هو الذي بلور فكرة الهجرة في أذهانهم، بل هو الذي حوّل ظاهرة الهجرة السرية من شبح مخيف إلى ثقافة عند المجتمع، وبالأخص عند الشباب، وعليه تشكل ما يسمّى بـ"هابيتوس الطبقة"؛ أي أنّ فئة الشباب الذين ينتمون إلى الطبقة الشعبية البسيطة، أصبحوا ينتبئون اهتمامات مشتركة، ويفكّرون بطريقة متشابهة، فالجميع يفكر في سلك طريق الهجرة السرية، ثمّ يتصرّفون جميعا وفق ذلك الأساس، ويبحثون عن السبل المثلّي التي تسهّل تحقيق مبتغاهم.

لم يكن العياشي في بداية الأمر يفكر في الهجرة السرية، على الرغم من كونه ناقما على أوضاعه، ابتداءً من بطالته وفقده، ومرورا بمرض والدته، وانتهاء بوصول ذلك الاستدعاء اللعين الذي يأمره بالالتحاق بالخدمة العسكرية، لم يستوعب أن يضيق عاما ونصف العام في الثكنة، ثم يعود ليجد أنّ الخطيرة تم الاستيلاء عليها، وأنه لا يملك خبرة لكي تسهّل عليه الحصول على وظيفة، فحيرة حمل السلاح لن تنفعه حينها. يقول مجيبا صديقه كمال بعدما سأله عن سبب رفضه تأدية الخدمة العسكرية: "يمكنني أن أذهب إن كنت سأجد في الثكنة ابن الوزير، السفير، أو حتى المدير، وحتى إن ضمنت لي ذلك وأحسبه مستحيلا، ففي النهاية لن يتغير شيء، سأبدّد عاما ونصف عام من العمر".⁸

يتضح من هذا المقتبس البنية النفسية والأذهنية للعياشي التي تشكل رؤيته للعالم وتوجّه ممارساته، وقد اكتسب تلك البنية من تنشئته الاجتماعية، إذ يُظهر وعيا بالتراتبية الاجتماعية واللامساواة، فهو يدرك وجود فوارق طبقية صارخة بين أفراد المجتمع، ويُعدّ هذا الوعي الطبقي جزءا من الهابيتوس الذي تشكل عند العياشي نتيجة معايشته لواقع اجتماعي غير عادل. كما يجمع هابيتوس نقدي ناجم عن احتكاكه بالواقع، وتراكم تجارب التهميش والإقصاء، لذلك لم يعد يتقبل الأمور كما هي بل راح يسائل الواقع ويحلّله.

ويتضح التمييز الطبقي جليا، من خلال المقتبس سالف الذكر، بين أبناء الطبقة الشعبية، وأبناء الطبقة العليا، فمن ينتمي إلى الطبقة الأولى يكون عادة مُجبرا على تنفيذ الأوامر، خصوصا تلك التي تفرضها السلطة، لأنه لا يملك رأس

مال اجتماعي؛ أي لا تربطه علاقات طيبة مع أفراد يحوزون رأس مال رمزي (المكانة، الوجاهة) يساعده على التصلب من الجشع وعدم الانخراط فيه، بينما يحظى أبناء الطبقة العليا (الوزير، والسفير، والمدير) بأنواع مختلفة من رأس المال، أهمها رأس المال الاجتماعي، فهم يوظفونه في تسيير مصالحهم الخاصة، ومن مصلحتهم ألا يضيّعوا عاما ونصف العام في التكنة.

كما يلعب رأس المال الاقتصادي الذي يمتلكونه دورا محوريا في إقذامهم من مشقة حمل السلاح، سواء عن طريق الرشوة، أم بأساليب أخرى يحترفونها، ناهيك عن السلطة الرمزية التي يتمتع بها آباؤهم، والتي تجبر الكثيرين على الانصياع لطبائهم أو أوامرهم. ومن ثم تظهر الهوة السحيقة بين الطبقتين، وهو ما ولد في نفس البطل رفضا مطلقا للخدمة العسكرية، وفي حقيقة الأمر هو رفض للواقع الاجتماعي الذي يمجّد طبقة على حساب أخرى، بل يعيد إنتاج التراتبية الطبقة؛ ذلك أن أبناء الطبقة الشعبية يحافظون على المنزلة ذاتها، فهم من يتعرضون للاستغلال، ويعيشون تحت وطأة الفقر، وهم من يحملون السلاح دفاعا عن الوطن، فينشأ آباؤهم تحت ظل تلك الظروف، دون أن يتغيّر فيها شيء، بينما يعيش أبناء الطبقة العليا حياة مرفهة، مثلما عاش آباؤهم، يتمتعون، ويحققون أحلامهم بعيدا عن المنغصات التي تفرضها التولة، وتجبر الطبقات المحرومة على الالتزام بها.

لم تفلح في البداية محاولات سمر وكمال في إقناع العياشي بمغادرة البلاد، والتحلّق بعيدا في ساء أوروبا، فكأنّ هناك جبل سري يربط بينه وبين الوطن، ويخشى عليه من الاقتطاع، لكنّ نشأته الاجتماعية هي التي غرست فيه الولاء للموطن الأول، وقد ورث ذلك الولاء من والده الذي تمسك بالعيش في المدينة حيث وُلد، ورفض الاستقرار في الريف أين كانت تعيش زوجته وأبناؤه "كان يتحين أول فرصة ليقل إلى المدينة، يذهب بحماسة مفرطة ليعود مكسور الجناح"⁹. ولم يهنا له بال حتى عاد مع عائلته إلى المدينة. وعليه يمكن القول إنّ العيش في كنف أب يقّس جذوره، ويهوى موطنه الذي وُلد وترعرع فيه، هو ما شكّل هايتوس العياشي، وجعله يصمّ آذانه في وجه كلّ من يحرّضه على ركوب البحر، ابتداء من صديقه سمر الذي فاجأه ذات يوم بقوله: "علاه الباسور كين والهدّة لا..."¹⁰ ومرورا بصديقه الآخر كمال الذي قدّم له عرضا مفضلا عن كيفية الهجرة، وكان قد خطّط لذلك مع سمر، وصولا إلى عمي عصمان، صانع البيّزا، الذي سأل العياشي من دون الجميع عن سبب بقائه في وطن يتلذذ أبناءه "الم تجد طريقا للخروج من هذا المستنقع، عش شبابك في إيطاليا قبل أن يحترق فتبكي على الرماد"¹¹.

لم ينجح كل هؤلاء في ثني العياشي عن موقفه، ولم يتمكنوا من تغيير قناعاته، والتي صرّح بإحداها لصديقه سمر حين طلب منه السّفر معه قائلا: "رضعت في "الدوار" كره فرنسا، نسيتها "بنت الكلب" خالان لي طمرا حين في برّ "دومانش" وتريدني أن أذهب عندهم"¹².

ويظهر الهايتوس مرّة أخرى من خلال تشرب العياشي بقيم ورثها عن بيئته الاجتماعية، فكوثه في صغره لفترة لا بأس بها في الدّوار عند أخواله، وهو الفضاء الاجتماعي الذي طبع فيه قيمهم وتوجهاتهم، جعله يتوخّد معهم معرّفيا وذهنيا، وما كرهه لفرنسا إلا نتيجة لتفاعله مع هؤلاء الأفراد، ومع تلك البيئة الريفية، ففرنسا هي العدو الذي تفتن في القتل والتعذيب والتنكيل، وعلى الرغم من مضيّ أكثر من قرن على جرائمها إلا أنّ آثارها باقية في نفوس أهل الريف ووجدانهم، كما ولدت تلك الجرائم إرثا من الذاكرة المؤلمة لدى العياشي لا يمكن محوها بسهولة، لذلك قفرت فرنسا مباشرة إلى ذهنه، هي دون غيرها من الدول، بمجرد سماعه اقتراح السّفر، وهو ما جعل صديقه سمر يستغرب من إجابته، ويستعزّ به قائلا: "تشرعني أنك عتيق جدا بطريقتك هذه في التفكير، وهل أوروبا هي فرنسا؟ توجد خمس وأربعين دولة..."¹³ ثمّ وضح له أنّ وجهتهم الأولى هي إيطاليا، ومن ثمّ يختارون بلدا آخر فأرض الله واسعة.

يتضح من كلّ ما سبق ذكره أن العياشي يحمل هايتوسا مقاوما ومشحونا بالذاكرة الجماعية، تكوّن في بيئة متأثرة بعنف استعماريّ مباشر، لذلك فهو يوجّه أفعاله ويمنعه من تقبّل فكرة المصالحة مع فرنسا الاستعمارية أو التعامل معها حتى في سياقات غير استعمارية. وعليه يتأكد ما ذهب إليه بيير بورديو من أنّ الهايتوس "يعمل وفق آليات داخلية معقدة تكوّن حدود النسق وتشكّله، في استقلالية عن محيطه، وتظهر إلى العلن في ممارسات تعبّر عن الهوية الاجتماعية لصاحبها واتّائه"¹⁴.

أي أنه نظام من الاستعدادات الذهنية والبدنية الراسخة التي تتشكل لدى الفرد عبر تجربته الاجتماعية، وبالأخص خلال مراحل التنشئة الأولى، هذه الاستعدادات لا تُكتسب بطريقة واعية أو مباشرة، بل تتكون تدريجياً من خلال التفاعل المستمر مع المحيط الاجتماعي والثقافي، وتترسخ في الجسد والعقل على شكل ميول دائمة للتصرف والتفكير والشعور بطريقة معينة. ويميّز الهايتوس بكونه يعمل كآلية داخلية خفية، توجه سلوك الفرد دون أن يكون بالضرورة مدرّكاً لذلك التوجيه "ولهذا يستطيع الفرد بوسيلة الهايتوس استبطان تجارب الماضي استبطاناً فعالاً عبر خطوات الإدراك والتفكير والعمل"¹⁵

ويعمل الهايتوس بطريقة متناسقة تصوغ ممارسات الأفراد وتفضيلاتهم، ما يمنح سلوكهم طابعاً يبدو طبيعياً أو تلقائياً، لكنه في الحقيقة ناتج عن تاريخ طويل من التكوين الاجتماعي. ويتسم هذا النسق بدرجة عالية من الاستقلالية؛ بمعنى أنه لا يتغير بسهولة عند تغير الظروف الخارجية، بل يواصل إنتاج أنماط السلوك نفسها حتى في سياقات جديدة، ما يجعله قوة موجهة للسلوك ومستقرة نسبياً.

كما يتحكم الهايتوس في كيفية إدراك الأفراد للعالم، ومن ثم يتصرفون وفقاً لتلك الإدراكات، وهذا ما يفسر مواقف سمير الذي أدرك مبكراً أنّ المكوث في الوطن انتحار بطيء، وقد تشكل ذلك الإدراك من خلال التجارب التي عاشها، والانكسارات التي ذاق ويلاتهما في أحيان كثيرة، ولذلك كان أوّل من صرّح برغبته في الهجرة السرية، بعد أن سُدت في وجهه أبواب السفارة الفرنسية، وعجز عن الحصول على التأشيرة. لم يكن سمير شاباً بسيطاً يفتقر إلى الطموح، بل كان مفعماً بالحياة، محبّاً للمغامرة، وقد كان يجوز على رأس مال ثقافي، أكسبته إياه شهادته الجامعية، كما يميّزه حبه للأناقة، ومجارته للموضة، على الرغم من ضيق حاله، وعدم حصوله على وظيفة ترضيه، ولم يكن يتطّبع بهابيتوس الطبقة الشعبية البسيطة، بل كان يحرص على أن يظهر في أبهى حلة، فهو "يلبس الماركات العالمية أياما بعد عرضها في باريس"¹⁶، ويتعطر بأرقى العطور، وكان يسخر من الموظفين الذين "يلبسون من "البالة"، لا يمشطون شعورهم المنكوشة، التي تسدل القشور البيضاء على أكتافهم، ويتعطرون بأرخص العطور"¹⁷ إضافة إلى أنّه يصادق فتيات أوروبيات عبر الفيسبوك، وقد استطاع الإيقاع بإحداهن، وهي من ساعدته على الهجرة.

ويحاول سمير أن يتشبّه بالطبقات العليا في الكثير من الأمور، لذلك تخلى عن عمله في الحظيرة، لأنه رأى فيه إهانة له، ولم يكن مقتنعاً بوظيفته في إطار عقود ما قبل التشغيل، وهو ما دفعه إلى الاستقالة فيما بعد. ويتضح من مشاهد روائية عدّة أنّه قد تطّبع بهابيتوس البيئة الاجتماعية التي نشأ فيها، وهي بيئة تفاخر بأصلها القسنطيني العريق، لذلك نجده يعلن تميّزه عن صديقيه القادمين من الجبال والقرى، متناسياً أنّه ينحدر من طبقة الكراغة، وأن أحد أجداده كان وافداً تركيا تزوّج من جدّته القسنطينية، ويبدو أنّ العرق التركي يسري في أعماقه، إذ تظهر عليه بعض طباع الأتراك التي يميّزها التعالي والترفع. وقد حاول مراراً أن يغرس في ذهن العياشي رفض الواقع والثورة عليه "لا ماضي لك هنا (... لا ماضي، لا حاضر ولا مستقبل، عني فقد قطعت آخر صلاتي بالوطن"¹⁸.

وتبلورت فكرة الهجرة السرية في ذهن سمير حين استوعب أنّ الوطن لا يعامل أبناءه بعدل، فهو يعلي من شأن فئة، ويحطّ من قيمة الأخرى ويضيق عليها الخناق، والأدهى من ذلك أنّ المستفيدين بحق من خيرات الوطن هم أبناء المجاهدين والإرهابيين الذين نزلوا من الجبال أثناء المصالحة الوطنية، هذا ما صرّح به للعياشي، حين أخبره بأن لا حاضر له في وطنه ولا مستقبل، فهو بذلك يعتبر عمّاً في دخيلة كل شخص يطمح إلى الهجرة، وما الهرب إلى الغير إلا نشداناً لتحقيق رغبات شعورية ولا شعورية، والحالم بالهجرة يهرب إلى المستقبل، وما يجتسده من تحسّن في الأوضاع واطمئنان، ويتقي شرّ الحاضر وما يجتسده من ضعف وإحباط.¹⁹

2.3 هابيتوس المهاجر السري بعد العبور:

1.2.3 صمود البنية الذهنية والسلوكية للمهاجر السري:

تعمل الاستعدادات التي يكتسبها الفرد بشكل لا واعٍ في حقلٍ ما على تسهيل تعامله مع المواقف أو التحديات التي تواجهه، لكنّه كثيراً ما يعجز عن التصرف إذا ما صادفته أحداث لا قبّل له بها، وهو ما حصل مع العياشي عندما وجد نفسه مشرّداً في مدينة برينوريا بدولة جنوب إفريقيا، بعدما رفض العمل في مطعم غيلاس، وهو ابن خالة صديقه كمال. كان العياشي وحيداً في بلاد غريبة، لا يملك زادا ثقافياً يجزّئه على المواجهة. يقول متحدّثاً عن المشاعر التي انتابته

حينها: "كنت أشعر أنني جثة ننته تتحرك على ساقين، ومن الداخل كانت أحلامي قد تأكلت، تبدد الأفق الواسع من حولي".²⁰

ويبدو جلياً من خلال هذا المتكطف الروائي أن الطّباع التي اكتسبها العياشي من بيئته الاجتماعية لم تمكنه من التأقلم مع الأوضاع الجديدة، فالتّردّد كان يطبع شخصيته منذ البداية، لأنه لم يكن قادراً على اتّخاذ قرار الهجرة السرية إلى أوروبا، وحتى عندما جازف وركب القارب لأول مرّة، استسلم مباشرة أمام بكاء والدته، وعاد أدراجها قبل أن يغادر القارب الشاطئ، وقد كان مجبراً عندما هاجر سرّاً مع صديقه كمال إلى جنوب إفريقيا، فلولاً وفاة والدته وانسداد جميع الأبواب أمامه لما اتّخذ قرار الهجرة.

يحتاج المهاجر السري إلى تطوير استراتيجيات للتكيف مع البيئة المستجدة، خصوصاً عندما يجد نفسه مجبراً على مواجهة وضعه الاقتصادي المزري، وهو ما حصل مع العياشي؛ ففي البداية لم يكن يملك أدنى خطط للخروج من النفق المظلم الذي كاد أن يبتلعه، ذلك أنّ النقود التي كانت تجوزته سرعان ما نفذت، وبعد مضيّ أسبوع من مكوثه في الفندق، وجد نفسه مفلساً وضائعاً، وهو ما اضطره إلى النوم في الحدائق العمومية ومخالطة المشرّدين من السّود. لم يكن العياشي يملك مهارات تمكنه من الخروج سريعاً من مأزقه، فهو لا يجيد اللغة الإنجليزية، وليس لديه خبرة في أيّ مجال من المجالات، ومع ذلك اجتهد في الحصول على عمل، وطرق أبواباً كثيرة، لكنّه كان يقابل بالرفض، إلى أن أكرمه مقران بالعمل كسائق شاحنة لنقل السلع، وهو ما أعاد إليه ثقته بنفسه. يقول: "نهضت من كبوتي وأصبحت أنتظر طلعة كلّ شمس لأخرج متبركاً بهذا الصبح الجديد".²¹

لكنّ العياشي انخرط في حقل مليء بالصّراعات لا يملك مفاتيحه، فقد كان يشارك في نقل الممنوعات دون علم منه، وهو الذي كان يظنّ أنه ينقل الخضار "وقعت بالقاضية جاهلاً بقوانين المدن الكبرى، كم كان عقلي سخيفاً وهو يقبل كرماً حاتماً من غريب وهبني مأوى وعملاً وأجرة مغرية لمجرد أنني طلبت ذلك".²²

اصطدم العياشي في دولة جنوب إفريقيا بحقل اجتماعي جديد له قوانينه الخاصة ورهائنه المختلفة، ووجد نفسه في مواجهة قواعد لعبة لا يتقنها، وهو ما ولد في نفسه الاعتراّب الاجتماعي، فلم يتمكن الهايتوس التقليدي الذي يحمله من فهم منطق الحقل الحضري الذي ألقى نفسه فيه، وعجز عن قراءة رموزه والتّصرف وفق مقتضياته، وبذلك بدت قيم الثّقّة والكرم والتّعاون التي تربى عليها في بيئته القروية غير ملائمة في فضاء اجتماعي تحكمه المصلحة والعقلانية. وافتقار العياشي للرأس المال الثقافي والاجتماعي زاد من صعوبة الموقف، وجعله عاجزاً عن التّأقلم مع وضعه الجديد.

ويقصد بالحقل الفضاء الاجتماعي، وهو ميدان للصّراع والمنافسة والمهمنة بين الأفراد، والهدف من ذلك الصّراع هو نيل الاعتراف، والحصول على التّفوّذ، واكتساب مكانة عالية، ويفيد تصوّر بورديو السوسيوولوجي أن ما "يوجد في العالم الاجتماعي هو في الحقيقة عوالم اجتماعية صغيرة أو حقول عديدة، يتمتع كل منها باستقلالية نسبية، ونظام معين من القواعد والتنظيّمات وبمنطق محدد وبنوع معين من العلاقات".²³ ومن أمثلة الحقول نجد: الحقل الدّيني، والثقافي، والفني، والرياضي، والسّياسمي... الخ.

إذاً، العالم الاجتماعي هو وحدة كلّية، تتخذ مكوناته الداخلية شكل عوالم اجتماعية صغيرة أو ما يطلق عليها بالحقول الاجتماعية، وكلّ حقل هو عبارة عن فضاء اجتماعي مصغر له خصائصه، ويكون مستقلاً نسبياً عن الحقول الأخرى، وتحكمه قواعد خاصّة به، لكن ذلك لا يمنع من وجود تأثيرات وتفاعلات فيما بينها.

ويتبع كلّ حقل منظومة من القواعد التي تنظّم كيفية اشتغال الفاعلين (الأفراد والمؤسسات) بداخله. هذه القواعد هي التي تحدّد ما يُعد ناجحاً أو فشلاً داخل الحقل، ومن يملك رأس المال الرمزي الذي يمنحه سلطة أو مكانة، وتبنى العلاقات الاجتماعية داخل كل حقل وفق ترتيب هرمي وصراعات مستمرة بين الفاعلين الاجتماعيين، أي "بين الداخل الجديد الذي يحاول أن يكسر أفضال حق الدخول والمهمن الذي يحاول أن يدافع عن احتكاره ويبعد عنه المنافسة"²⁴، و يسعى كل هؤلاء إلى تعزيز مواقعهم ضمن الحقل، معتمدين في ذلك على أشكال متنوعة من رأس المال (اقتصادي، وثقافي، واجتماعي، ورمزي).

لم تكن فرصة اندماج العياشي في مجتمع جنوب إفريقيا متاحة في بداية تواجده هناك، نظراً لاختلاف الأعراق المشكلة لتلك الدولة، فقاطنوها عبارة عن أوروبيين وأفارقة، تجمعهم صراعات وأحقاد، لذلك كانت أول عبارة تفوّه بها

غيلاس عندما استقبل العياشي وكال كانت عبارة تحذيرية: "في هذه البلاد أول 100 دولار يكسبها الإنسان هنا لا يشتري بها هدية لأمه بل مسدسا"²⁵، وهو ما زرع الخوف في قلوبها، وهما اللذان كانا ينتظران ترحيبا من نوع آخر. وبما أنّ الأوروبيين البيض هم من يهيمنون في تلك الدولة وينتعمون بثرواتها وخيراتها، فقد كان السود يعانون من التمييز والترفقة، سواء أكانوا مواطنين أم مهاجرين سريين، ولعلّ العرق الإفريقي، وكذا الاشتراك في المعاناة هو ما دفع العياشي للاختلاط بهم دون غيرهم، يأكل في مطاعمهم، وينام في الحدائق العمومية بجانبهم، ذلك أنّ الهايتوس لديه بوجهه اختياراته لا شعوريا، وبوصفه فردا ينتمي إلى بيئة كانت مستعمرة ومهمشة فهو يحمل في لا وعيه استعدادا يجعله ينفر من البيض، أو من رموز الهممنة، ويميل تلقائيا إلى من يشبهونه في التجربة التاريخية والاجتماعية؛ فالسود عانوا طويلا من النظام العنصري في جنوب إفريقيا، وتعرضوا لعنف تاريخي يشبه العنف الذي تعرّض له أجداده، كما أنّه يجد فيهم مرآة لذاته، إذ أنهم يعانون التهميش مثله تماما لذلك يشعر بتقارب وجدائي ورمزي معهم.

وظلّ العياشي في بداية تواجده بجنوب إفريقيا محافظا على قيم مجتمعه، وتمسكا بهويته وخصوصيته الثقافية، وملتزما بتعاليم دينه، ويتضح ذلك من خلال رفضه للعمل في مطعم غيلاس لأنه يقدم خمرًا للزبائن، ويستخدم لحم الخنزير في الطهي، كما رفض العمل في مطعم مقران للسبب ذاته. يقول مخاطبا مقران: "ليس بوسعي أن أعمل هنا لأسباب تتعلق بنشأتي"²⁶

ويعبر هذا الموقف عن حضور قويّ للهايتوس الديني الذي يجمع به العياشي، فهو يعلن رفضه لما يتعارض مع معتقداته الدينية، ويلتزم بحدود أخلاقية اكتسبها من بيئته السابقة، فعلى الرغم من انتقاله إلى حقل جديد لا يزال يستنبط آليات التفكير والعمل القديمة، ويرفض الانخراط في لعبة الحقل الاقتصادي بشروطه المحففة على الرغم من حاجته الشديدة إلى مدخول مادي، ذلك أنّه يتنافى مع عقيدته. كما يتجلى الهايتوس الأخلاقي لديه من خلال تمسكه بمبادئه، وارتكازه على منظومة أخلاقية رافضة للانخراط في أنشطة غير مشروعة حتى وإن كانت تدرّ أرباحا وترتقي بوضعيته المادية، إذ تخلّى عن العمل عند مقران كسائق شاحنة بعدما اكتشف أنه مخادع وتاجر ممنوعات، كما أعاد رخصة السياقة المزورة التي أعطاه إياها مقران إلى صاحبها.

كما يظهر تمسكه بصحة كمال عندما طرده غيلاس بعدما اكتشف سرقة له، جانبا من الهايتوس العاطفي والاجتماعي القائم على التضامن القروي وعدم التنكر للعشرة؛ حيث تبقى الصداقة والالتقاء الأولية لها قيمة تفوق المنافع المادية، وهذا يدلّ على التزام العياشي بالقيم الاجتماعية الأصيلة كالثقة والوفاء والارتباط الوجداني.

يتضح من كلّ ما سبق، أن العياشي اتخذ لنفسه موضع دفاع عن البنيات الاجتماعية المثمّلة في القيم والتقاليد التي استنبطها من مجتمعه، وترميخت في شخصيته، فالهايتوس هو الموجه لسلوكاته، فهي تصدر عنه وفق مرجعية معيّنة مرتبطة ببنية الذهنية، وليست نابعة من حريته المطلقة بل هي نتاج الممارسات الاجتماعية والقيم التي تشكل جزءا من ثقافته التي اكتسبها من الأسرة أو من المدرسة والمجتمع، ذلك أن بورديو ميّز بين نوعين من الهايتوس، أولهما: الهايتوس الأولي: ويقصد به الاستعدادات التي يكتسبها الفرد من الأسرة، وتؤثر فيه تأثيرا قويا، ويتصف هذا الهايتوس باستمراريته، وثباته وصعوبة تغييره. أما ثانيها، فهو الهايتوس الثانوي: ويمثل في الاستعدادات التي يكتسبها الفرد من المدرسة، التي تعمل بدورها على ترسيخ الهايتوس الأولي من جهة، وإضافة استعدادات حديثة من جهة أخرى.²⁷

باختصار، فإن الهايتوس عند بيير بورديو هو ذلك الرابطة الخفي بين البنية الاجتماعية وسلوك الفرد؛ حيث يعمل على ترجمة البناء الطبقي إلى ممارسات ملموسة تحمل في طياتها علامات الانتماء والتمييز الاجتماعي.

2.2.3 تفكك الهايتوس التقليدي وإعادة تشكيل الذات:

قد يكون لبعض المهاجرين السريين تقبل كتي للقيم الاجتماعية التي تطبع التّولة المهاجر إليها، وهؤلاء لديهم قابلية التأثر بالمؤثرات الخارجية، فالمكوث لمدة طويلة في الدولة المضيفة يعد دافعا قويا للانسجام مع تلك القيم أو تبنيها، وأحيانا يتطور الأمر إلى التنكر للقيم الأصلية، وهو ما حصل مع كمال عندما انسلخ من القيم السائدة في بيئته الاجتماعية، فأصبح يعاقر الخمر، وقد كان يفعل ذلك مستترا خوفا من تأنيب العياشي، لكنه أصبح يعاقرها وهو يشاهد التلفاز، إضافة إلى أنه يدخن بشراهة، ويتعاطى نوعا من المخدرات الزائجة في دولة جنوب إفريقيا وتسمى (وونغا)، وقد أبدى العياشي استغرابا كبيرا لما آل إليه صديقه، يقول: "لم يعد كمال الذي عرفته عام 1998 في "الكديّة"، تغيّر كما لو لم

يكن ذلك الذي يتصرف كطفل صغير لا يملك خبرات بالحياة²⁸ أصيب العياشي بصدمة معرفية نتيجة عدم قدرته على التوفيق بين صورة كمال السابقة وصورته الحالية، وهذا يدل على استمرار هايتوس العياشي التقليدي في الحكم على العالم انطلاقاً من معايير مألوفة، بينما كمال أعاد تشكيل ذاته، وأبدى انسجاماً مع المجتمع الجديد، وراح يستلذ بمناذمة النساء، يقول عنه العياشي بعدما رآه بلاطف فتاة شقراء، وقد تفاعلت مع همساته ووشوشاته: "تنقضي جراته هذه، لقد استطاع أن يكسر حاجز التردد، كما تعلم الإنجليزية بسرعة وصارت مشاكساته هذه فعلاً يومياً يقدم عليه كل يوم باحتراف أكثر"²⁹.

وكان كمال قبل الهجرة يتمتع بهايتوس تقليدي متأثر بقيم بيئته الأصلية، وملتمز بالضوابط الاجتماعية والأخلاقية الصارمة التي تكبح الشهوات، وترثي الفرد على احترام الأعراف، كما كان يتسم ببراءة اجتماعية ولا يملك خبرات بالحياة، غير أنّ هايتوسه القديم تفكك أمام واقع اجتماعي وثقافي مغاير، ونشأ هايتوس مهجروي جديد يقوم على المتعة والانفلات من القيم السابقة، وبذلك أعاد تشكيل هويته الاجتماعية عبر سلوكات تتماشى مع نمط الهجرة خصوصاً مع تحرره من الرقابة، وعليه، يمكن القول إنّ الهايتوس ليس جامداً بل يتكيف مع الحقل الجديدة، لكن بقدر ما تسمح به البنية المتجذرة للفرد.

كما يتضح تغير هايتوس العياشي وتطوره من خلال تخليه عن الكثير من القيم التي عاش بها لفترة طويلة من الزمن؛ حيث أصبح يمارس ما كان يستهجنه في صديقه كمال، فعدا شرب الخمر أمراً عادياً بالنسبة إليه؛ فقد صار يسكر مع شلة من الرفاق الجنوب إفريقيين، شبان وفتيات، وبات يدخن الحشيش، ويؤاد النساء، ويصادق فتاة من أصل هولندي هي من كانت تدس الحشيش في جيبه، وتدفع المال بدلا عنه عندما يكونان في المقهى.

وتحول العياشي من استرجان تلك السلوكات إلى تبنيهاً يجسد بوضوح كيف أنّ الهايتوس ليس ثابتاً بل هو يتأقلم مع السياق، إذ تعمل البنات الجديدة على إعادة تشكيل السلوك والذوق والميول، غير أنّ هذا التحول لا يحصل دائماً بسلاسة، إذ قد يكون مصحوباً بتوتر داخلي بين ما كان عليه وما أصبح عليه، وهو ما يفتح الباب لاحقاً للانفجار الوجداني الناتج عن تصدع الهوية الثقافية، فالذاكرة القديمة قد تطفو لاحقاً في شكل تناقضات أو شعور بالذنب، وهذا ما حصل عندما أحس العياشي بأن كل ما مر به من مصائب هو عقوبة إلهية بسبب ما ارتكبه من معاصي.

3.3 الهايتوس وتجلياته في الأفعال الجسدية للمهاجرين السريين :

لا يحصر بورديو الهايتوس في الأفكار والقيم والمعتقدات والتوجهات التي تحدد سلوك الأفراد أثناء تعرضهم لمواقف معينة، بل يتوسع في هذا المفهوم ليشمل التصرفات والأنماط السلوكية التي يقوم بها الأفراد نتيجة لتجارهم في الحياة الاجتماعية، بمعنى أنّ الهايتوس لا يرتبط بطريقة تفكير الأفراد فحسب، بل "يعبر عن نفسه في الحركات والإيماءات والوقفات، وفي الطريقة التي يُستخدم بها الجسد في الفضاء الاجتماعي"³⁰ أي أنه يتجلى في المشي، والحديث، وأسلوب الكلام وحتى اللباس، والأكل، والأذواق الفنية، إلى غير ذلك، فالأفراد حسب بورديو يميلون إلى التصرف بطرق متشابهة إذا كانوا ينتمون إلى الطبقة الاجتماعية نفسها، ذلك أنّ الهايتوس يوجه أفعالهم وسلوكاتهم وتصوراتهم بشكل تلقائي دون اللجوء إلى التفكير في كلّ مرة أو إلى التخطيط واع. من هذا المنطلق يمكننا تفسير تصرفات المهاجرين السريين وأذواقهم في رواية هجرة حارس الخطيرة.

وتتضح الخلفية الاجتماعية والثقافية للمهاجرين السريين من خلال طريقة تصرفاتهم وحركات أجسادهم أثناء تفاعلهم مع الآخرين، بمعنى أنّ حركاتهم الجسدية ليست عشوائية، بل هي ناجمة عن التجارب التي أسهمت في تشكيل شخصيتهم. وقد أظهرت رواية هجرة حارس الخطيرة كيف أنّ المهاجر السري يسعى إلى تحسين سلوكاته لكي تتماشى مع سلوكات المجتمع المهاجر إليه. يقول العياشي مصوراً حالته وحالة كمال عندما وصلا إلى دولة جنوب إفريقيا: "نحن نتصنع في حركاتنا أننا جزء من هذا المجتمع المنضبط، فستترق النظرات خلسة وسرقها عنوة في بعض الأحيان، كان الأمر أكبر من طاقتنا على أن نتحكم فيما نفعل"³¹.

وجد العياشي نفسه في تخوم مجتمع جديد لا يتقن قواعد الخفية والمعلنة، لذلك لجأ مع صديقه كمال إلى تصنع الانضباط، وهو ما يدل على إدراكها للتباين بين ما يُطلب منها لمسيرة المجتمع وبين ما تدفعها إليه بنيتها الذهنية المتجذرة، وقد بدا سلوكها بعيداً عن عقوبة الهايتوس لأنه ناهم عن ضغط خارجي يستوجب المراقبة الذاتية، ومحاولة

التهاهي مع معايير لا تتعلق بخلفيتها الثقافية الأصلية، غير أن استراقها النظر خلصة وأحياناً عنوة يدلّ على أنّ الجسد يفلت من سلطة الانضباط، فهو يتصرّف دون الحاجة إلى قرار واع، ذلك أنّه الذاكرة الحية للهايتوس الموروث. ويعاني المهاجر السري رهاباً من الترحيل ومن الملاحقة القانونية، لذلك يلجأ إلى أن يطوّر هايتوساً خاصاً به يساعده على البقاء على قيد الحياة. كملازمة الحذر وتجنّب رجال الشرطة، وتفادي الانخراط في الأنشطة التي من شأنها أن تعرّضه للخطر أو الاعتقال، لذلك نجد العياشي يسخر من غباء كمال عندما سأله إن كانا سبشاركان حقاً في الاحتجاج الذي سيقميه جزائريون أمام مقر السفارة في جنوب إفريقيا، بسبب حادثة الاعتقال التي نقّدها السود العنصريون، والتي راح ضحيتها جزائري. يقول العياشي: "لا يمكننا أن نظهر أمام رجال الشرطة بهذا الشكل السافر ونحن هنا مهاجرين سريين"³².

كما يتفام شعور المهاجر السري بالتهديد الاجتماعي مع مرور الوقت، إذ أنّه لا يجتمع بالحقوق القانونية؛ كونه يفترق لجنسية البلد المضيف، ولا يملك وثيقة إقامة تمكّنه من التنقل بحرية وممارسة حياته بشكل طبيعي، كلّ هذا يكسبه هايتوساً يعزّز لديه الرغبة في الانزعال، وتجنّب الاختلاط بأفراد المجتمع، وقد حرص العياشي وصديقه كمال على الابتعاد عن التجمعات البشرية، كما اقتصرت تعاملات العياشي على بعض الجزائريين والسود. يقول: "إذا أكلت في الشارع ففي السوق على الهواء الطلق، مع السود"³³. ولعلّ ذلك يعود إلى استشعار الدعم العاطفي، فالسود يعانون أيضاً من التهميش، والكثير منهم يوجد في وضعية غير شرعية.

ويكتسب المهاجرون السريون قواعد ثقافية محدّدة فرضتها عليهم حياة تحكّمها الضرورة الأمنية والاقتصادية، بحيث تكون نظرته للطعام نظرة وظيفية، فيتركز اهتمامهم على الطعام الذي يقيم الصلّب، ويقيم على قيد الحياة. يقول العياشي: "في اليوم الموالي اشتريت لباساً جديداً وحملت نفسي إلى مطعم بسيط، أكرمت معدتي بوجبة سمك وصببت لتراً من المشروب الغازي في جوفي، وخرجت شعباناً أبدو سائحاً أو في أردأ الحالات مواطناً جنوب إفريقي، حتى كدت أصدق كذبتى"³⁴.

هذا المقطع يحيلنا إلى ما ذهب إليه بورديو من أنّ الذوق ليس اختياراً فردياً، بل هو نتيجة للهايتوس الذي يتشكل داخل طبقة اجتماعية محدّدة، فالطبقات الشعبية تميل إلى البراغاتيّة في ذوقها، بينما تميل الطبقات العليا إلى الذوق الزاقي، ومن هنا يمكن فهم اختيار العياشي لإكل السمك، وشرب مشروب غازي، فهذا الطعام يقيم صلبه ويشعره بالتشبع، كما أنّه غنيّ بالسعرات، أمّا إتباع الأكل بمشروب غازي، فهذه عادة شائعة في بيئته الأصلية، وبذلك يتجلّى الهايتوس الشعبي الأصلي لدى العياشي.

ويبدو أنّ العياشي، بعد فترة من الانكسار والتبّه، قد دخل مرحلة انتقالية تميزت بقدر من التصالح مع الذات والافتتاح على تجارب جديدة، يقول: "نهضت من كبوتي وأصبحت أنتظر طلعة كل شمس لأخرج متبركاً بهذا الصباح الجديد، أنظر في نفسي في المرآة، أعزم لها، وأخرج مقلداً مشية الطاووس، أصفر أو أذندن أغنية شاولية قديمة أو ربما أكل بذر عباد الشمس، كان المزاج يسمح بتعلّم العزف على آلة موسيقية وشراء كلب لأرعاها"³⁵.

ويُمكن فهم هذا المقطع الذي يصف فيه العياشي تحوّل السلوكي والنفسي بعدّه تجلّياً واضحاً لإعادة تشكّل الهايتوس نتيجة لتغيّر الشروط الاجتماعية والثقافية المحيطة به، فالنظر في المرآة والتغني بأغنية شاولية أو تربية كلب، هي ممارسات تشير إلى تحوّل في منظومته الذوقية والجمالية. وهذا التحول لا يعني قطعية تامة مع الهايتوس القديم، بل يدل على ما يسميه بورديو الهايتوس المتحوّل الذي يظل مرتبطاً بالبنيات القديمة، ولكنه يعيد تشكيل نفسه استجابة لشروط مغايرة. وفي هذا السياق، فإنّ تبني العياشي لعادات جديدة وتعبيره عن اعتراز رمزي بالذات (مثل مشية الطاووس) يشير إلى إعادة بناء لرأس مال شخصي يُمكنه من التكيف مع حقل اجتماعي جديد. فكما يؤكد بورديو، لا يمكن للفاعل أن ينجح في الحقل الجديد إلا إذا أعاد تكييف هايتوسه بما يتماشى مع قواعد اللعبة داخله. وعليه، فإنّ ما يعيشه العياشي هو عملية إعادة تموضع اجتماعي وثقافي، تتجلّى في ممارسات يومية بسيطة ولكنها محمّلة بدلالات سوسيوولوجية عميقة، تعبّر عن تشكّل ذات جديدة تنبع من تفاعل مستمر بين الماضي والحاضر، وبين الهايتوس الموروث واستعدادات الواقع الجديد.

ويؤكد ما ذهبنا إليه قول العياشي في موضع آخر: "وفي ظرف وجيز امتلكت عادات خاصة إذ أشرب القهوة في المركز التجاري وأمشي كيلومترين تقريبا إلى البيت، وفي المساحة ذاهبا وآيبا أتعن في خلق الله وهندسة المدينة، وأمتع نفسي بمشاهدة بعض من أطوار مباراة في لعبة "الريكي" تجري كل صباح في ملعب مكشوف.."³⁶

تكشف هذه الفقرة عن ملامح تحوّل هايتوس العياشي نتيجة انخراطه في فضاء اجتماعي وثقافي جديد، فشرّب القهوة في مركز تجاري وهو مكان حديث ذو طابع استهلاكي يعكس تبني ممارسات حضرية مغايرة لما اعتاد عليه، ويكشف عن بداية خلق نمط عيش بورجوازي حديث، كما أنّ المشي لمسافة طويلة والتأمل في هندسة المدينة بشيران إلى تحوّل في الدائقة الجمالية، وهو شكل من أشكال التماهي الرمزي مع الفضاء الجديد، أما متابعة مباراة الريكي وهي لعبة ذات دلالة طبقية وثقافية في المجتمع الجنوب إفريقي، فتدلّ على بداية افتتاح على ثقافة مغايرة، مما يدل على قرب تشكل رأس مال ثقافي جديد، فالفضاء الذي ألفى العياشي نفسه فيه فرض عليه إعادة تشكيل ممارساته ضمن شروط مغايرة، وبالتالي يتشكل لديه هايتوس مهاجر متأقلم، يتأرجح بين ما تبقى من ماضيه الثقافي وما تفرضه عليه شروط الحياة الجديدة من ممارسات وتصورات مختلفة.

4. خاتمة:

يظهر الهايتوس إلى العلن من خلال الممارسات التي تقوم بها شخصيات رواية هجرة حارس الحظيرة، ويتضح في اختياراتهم، وطريقة حديثهم، وأسلوب تعاملهم، وذوقهم، وحتى في تفضيلاتهم الجمالية والسياسية. هذه الممارسات ليست مجرد سلوك عشوائي أو طائش، بل تعكس الموقع الاجتماعي لتلك الشخصيات واتماها الطبقي والثقافي. وبالتالي، فإن الهايتوس لا يعبر فقط عن هوية الفرد، بل يعيد إنتاج التراتبية الاجتماعية من خلال تأكيد الانتماء إلى طبقة معينة عبر الممارسات الرمزية.

وقد أسفرت هذه الدراسة عن جملة من النتائج يمكن أن نجملها فيما يأتي:

-دراسة رواية هجرة حارس الحظيرة وفق المنهج السوسولوجي توضح كيف أنّ الأدب لا يعكس الواقع فحسب، بل يعيد تشكيله مستعينا بشخصيات تنبض بهيوم الواقع الاجتماعي. وقد مكن توظيف مفاهيم بيير بورديو كهايتوس والحقل ورأس المال من تفسير التحولات التي تطرأ على الشخصيات الروائية ضمن سياقها التاريخي والاجتماعي.

-تكشف الرواية من خلال تمثيلها للتحولات التي تطرأ على الذات المهاجرة أنّ الهجرة السرية لا تغير الموقع الجغرافي فحسب، بل تشكل هايتوس جديد بأبعاده الجسدية والرمزية، وعليه يصبح النص الأدبي مجالا خصبا لتتبع تمزقات الهوية في ظل صراع دائر بين ماضي الفرد وحاضره. كما أنّ هايتوس المهاجر السري يظلّ شاهدا على انكسارات الذات في مواجهة عالم لا يقيم لها وزنا بل يبقى لها مكانا في الهامش.

-يُظهر الهايتوس كما صاغه بيير بورديو أنه أداة تحليلية فعالة لفهم التغيرات التي تطرأ على الشخصية الروائية من حيث سلوكها وتفكيرها في ظروف اجتماعية صعبة، خصوصا إذا كانت في حالة هجرة سرية، وهذا ما يجعلها تجد نفسها بين عالمين: عالم قديم فقدت مكانته فيه، وعالم جديد لا تستطيع أن تثبت نفسها فيه بسهولة.

-تُظهر رواية هجرة حارس الحظيرة أنها ليست مجرد حكاية عن معاناة المهاجرين السريين، بل هي فضاء غني يسمح بتحليل العوامل العميقة التي تؤثر في تجربة الهجرة السرية، فهي تكشف كيف تستمر أشكال السيطرة الاجتماعية حتى بعد مغادرة الوطن، وذلك من خلال سرد يعكس أبعادا اجتماعية وثقافية تتجاوز الجانب الإنساني البسيط إلى تحليل سوسولوجي عميق.

-تغيّر هايتوس المهاجر السري بتغيّر السياقات الاجتماعية وبتفاعله مع ثقافات مغايرة لثقافته، فقد يلجأ إلى تغيير ممارساته وأفكاره لتتماشى مع البيئة الجديدة، وبذلك يحدث تغيير في هويته وميوله، كل ذلك يتسبب في إعادة تشكيل الهايتوس مما يؤثر على كيفية تفاعل الأفراد مع العالم المحيط بهم.

ولعلّ من المفيد في هذا السياق أن تُوجّه الدراسات المستقبلية نحو تحليل تطور هايتوس المهاجر السري بين أكثر من رواية أو عبر مراحل مختلفة من الهجرة، أو نحو رصد تداخل هذا الهايتوس مع تقاطعات النوع الاجتماعي والجسد واللغة، بما يسمح بفهم أعمق لتجربة الهامش والهجرة غير السرية في الأدب المغربي المعاصر.

- 1 ينظر: حسني إبراهيم عبد العظم، الجسد والطبقة ورأس المال الثقافي: قراءة في سوسيولوجيا بيير بورديو، إضافات: المجلة العربية لعلم الاجتماع، بيروت، لبنان، ع15، 2011، ص60.
- 2 ينظر: عمر داود، التصنيف الطبقي بين الأيتوس والرأسال: قراءة في سوسيولوجية بيير بورديو، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، جامعة غرداية، ع18، 2013، ص212.
- 3 ينظر: حسني إبراهيم عبد العظم، الجسد والطبقة ورأس المال الثقافي، ص61.
- 4 ينظر: المرجع نفسه، ص61.
- 5 نجم الدين سيدي عثمان، هجرة حارس الحضيرة، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2017، ص6.
- 6 ينظر: عبد النبي ذآكر، اليوطوبيا في رحلات العرب إلى الغرب، مجلة جذور، السعودية، مجلد9، ع21، سبتمبر2005، ص194.
- 7 نجم الدين سيدي عثمان، هجرة حارس الحضيرة، ص16
- 8 المصدر نفسه، ص27.
- 9 المصدر نفسه، ص35.
- 10 المصدر نفسه، ص14.
- 11 المصدر نفسه، ص43.
- 12 المصدر نفسه، ص58.
- 13 المصدر نفسه، ص58.
- 14 بيير بورديو، الهيمنة الذكورية، ترجمة سلمان قعفراني، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، ط1، 2009، ص186.
- 15 أحمد صبور، المعرفة والسلطة في المجتمع العربي: الأكاديميون العرب والسلطة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط2، 2001، ص36.
- 16 نجم الدين سيدي عثمان، هجرة حارس الحضيرة، ص15.
- 17 المصدر نفسه، ص15.
- 18 المصدر نفسه، ص59.
- 19 ينظر: عبد النبي ذآكر، اليوطوبيا في رحلات العرب إلى الغرب، ص195
- 20 نجم الدين سيدي عثمان، هجرة حارس الحضيرة، ص150
- 21 المصدر نفسه، ص157
- 22 المصدر نفسه، ص164
- 23 عبد الغني عواد، سوسيولوجيا الثقافة، المفاهيم والإشكاليات، من الحداثة إلى العولمة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 2006، ص99.
- 24 بيير بورديو، مسائل في علم الاجتماع، ترجمة هناء صبحي، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، أبو ظبي، الإمارات العربية، ط1، 2012، ص182.
- 25 نجم الدين سيدي عثمان، هجرة حارس الحضيرة، ص147
- 26 المصدر نفسه، ص152
- 27 ينظر: عمر داود، التصنيف الطبقي بين الأيتوس والرأسال، ص212، 213.
- 28 نجم الدين سيدي عثمان، هجرة حارس الحضيرة، ص171
- 29 المصدر نفسه، ص174
- 30 حسني إبراهيم عبد العظم، الجسد والطبقة ورأس المال الثقافي، ص69.
- 31 نجم الدين سيدي عثمان، هجرة حارس الحضيرة، ص146

32المصدر نفسه، ص178

33المصدر نفسه، ص179

34المصدر نفسه، ص153، 154

35المصدر نفسه، ص157

36المصدر نفسه، ص157

قائمة المصادر والمراجع:

1. أحمد صبور، المعرفة والسلطة في المجتمع العربي: الأكاديميون العرب والسلطة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط2، 2001.
2. بيير بورديو، مسائل في علم الاجتماع، ترجمة هناء صبحي، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، أبو ظبي، الإمارات العربية، ط1، 2012.
3. بيير بورديو، المهنة الذكورية، ترجمة سلمان قعفراني، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، ط1، 2009.
4. حسني إبراهيم عبد العظيم، الجسد والطبقة ورأس المال الثقافي: قراءة في سوسيولوجيا بيير بورديو، إضافات: المجلة العربية لعلم الاجتماع، بيروت، لبنان ع 15، 2011.
5. عبد الغني عماد، سوسيولوجيا الثقافة، المفاهيم والإشكاليات، من الحداثة إلى العولمة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 2006.
6. عبد النبي ذآكر، اليوطوبيا في رحلات العرب إلى الغرب، مجلة جنور، السعودية، مجلد9، ع21، سبتمبر2005.
7. عمر داود، التصنيف الطبقي بين الأيتوس والرأسال: قراءة في سوسيولوجية بيير بورديو، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، جامعة غرداية، ع18، 2013.
8. نجم الدين سيدي عثمان، هجرة حارس الحظيرة، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2017.